عن تغاضض النقد..

عن مخيلة تستهويها أناقة الأشياء و الكلمات (*)

بنعيسى بوحمالة

(1)

مذ كانت الممارسة الشعرية - و الإبداعية بعامة - إلاّ و هي عرضة لممارسة نقدية ملازمة لها تمتلك معاييرها في التقييم و أوفاقها في المفاضلة، و مذ كان الشعراء إلاّ و مستقرهم، ضمن كافة الآداب الوطنية، في خانات و مراتب، بله طبقات كما جرى به العمل في النقد العربي الكلاسيكي مثلا، يتعهدها الحقل المجتمعي - الثقافي بالصدقية و الشرعية و التكريس. لكن و مذ وجدت الممارسة الشعرية و وجد القائمون عليها تحصلت أيضا ضروب من الأحكام القسرية أو الإطلاقات الاختزالية، و مثلها ألوان من الصموتات أو الإرجاءات التي أدى كلفتها الاعتبارية شعراء لم ينالوا، لهذا المسوغ أو ذاك، نصيبهم من الاعتناء و لم يتدبر، بالتالي، منجزهم الكتابي بما يليق به من نزاهة و إنصاف.

و على شاكلة ما حصل، عربيا، في شعرية الريادة لّما استأثر بدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي و أدونيس و صلاح عبد الصبور و محمد مفتاح الفيتوري و أحمد عبد المعطي حجازي و سعدي يوسف.. بتلك الحظوة النقدية و الإعلامية، المستحقة ما في ذلك ريب، التي ستغطي على الأدوار المنتجة في نطاق هذه الشعرية لحشد هائل من الشعراء العرب الذين جايلوا جملة الأسماء البارزة الملمع إليها، لربما اعتبرنا الشعرية الستينية، إن نحن اقتصرنا على عقد الستينات، بالمغرب مجلى قاعديا لهذه المفارقة التي ستطول أكثر من واحد من الشعراء المنتسبين إلى جيل الستينات و منهم الشاعر عبد الرفيع الجواهري، ذلك أن تموقع بعض شعراء الجيل في بؤرة المشهد الشعري و توزع البعض الآخر على أطرافه، حقيق، فيما نرى، بمباشرة تأمل سيميولوجي، مدعوم بأسئلة سوسيولوجية تتصل بإوالية الإنتاج و التداول الثقافيين، بغية وضع اليد على مختلف الحيثيات، الإبداعية و غير الإبداعية، التي استحكمت في هندسة المواقع الاعتبارية للشعراء الستينيين، و التي بموجبها ارتفع منسوب الضوء النقدي و الإعلامي المسلط على هؤلاء و استفحلت درجة التعتيم الذي كان جزاء أولئك.

ليس في نيتنا، في هذا المقام، إعادة توضيب المشهد الشعري المغربي بقدر ما نتوخى جذب الانتباه، و كفى، إلى هذه المفارقة و إعمال التفكير فيها لكونها تنطبق على أسماء و خبرات شعرية لا يستهان بها

كان لها دورها المتعين و الأساسي في إطلاق - تركيز المشروع الشعري الحداثي بالمغرب ضمن ممكناته الكتابية و التعبيرية المفتوحة و معيقاته التصورية و الأدائية سواء بسواء.

قد نذهب، مثلا، إلى كون الحدب الذي لقيته تجارب أحمد المجاطي و محمد السرغيني و محمد الخمار الكنوني الشعرية، نقديا و إعلاميا، مرده، علاوة على الاقتدار الشعري البيّن لهذا الثالوث الذي هو بمثابة النواة الصلبة لتشكيلة شعراء الجيل الستيني، إلى انتساب هؤلاء الشعراء إلى الحرم الأكاديمي، أي تواجدهم في صلب مجال معين، بامتياز، قراءة و تتبعا و نقدا بالإنتاج الشعري لأنه موئل فاعلين / منفعلين ثقافيين قريبين، فعليا و رمزيا، من منتوجهم الشعري، و من حيث الإغراء الذي تباشره الأساطير الشخصية للمبدعين فقد نردف إلى هذا الاعتبار الأسطورة التي أرختها في الوسط الثقافي العام بوهيمية المجاطي الخلاقة و الجميلة، و سطوة السرغيني المعرفية و الفنية، ثم هشاشة الكنوني و دماثته الروحية، هذا من غير ما تنحية كاملة لدواعي تحفيزية أخرى متباينة و ملتبسة، إيديولوجية و فكرية و أخلاقية، تنمّي هذا الحدب و توطده.

أمّا عبد الكريم الطبال، الذي حاز، بكيفية أو بأخرى، قدرا من الاهتمام النقدي و الإعلامي، فيرجع أمره، بحسب ما يعنّ لنا، و بصرف النظر عن قريحته الشعرية المكينة، إلى تموضعه، مكانيا و مهنيا، على العكس تماما من تموضع الثالوث المذكور، أي في بلدة شفشاون الهادئة، المحصنة ضد إكراهات المدن الكبرى، الجامعية و غير الجامعية،، ممّا سيسعفه على التفرغ لتجربته الشعرية، التي لا يكف عن تطويرها و تجذيرها، في استقلال عن أيّ اعتبار مؤسسي،جامعي، كان، ما دام يمتهن التعليم الثانوي، زد على هذا تحرّره من أيّما ارتهان بالتفاعلات المعقدة التي تكيّف، عادة، الشأن النقدي و الإعلامي، في مراكز القرار الثقافي، و تسطر للنقاد و الإعلاميين جدول عملهم.

و في الفسحة القائمة بين هذين الحدين الموصوفين تنتشر أسماء أخرى من نفس الجيل الشعري في مدن تطوان و طنجة و مكناس و الدار البيضاء و مراكش، في قلب المغرب النافع ثقافيا و إعلاميا، إن شئنا، و تمارس مهنا سمتها الوسطية، إن جاز التعبير، كالتعليم الابتدائي و التعليم الثانوي و الصحافة و المحاماة.. و هي حالة كلّ من محمد الميموني، و عبد الإله كنون، و أحمد صبري، و محمد علي الهواري، و بنسالم الدمناتي، و عبد السلام الزيتوني، و عبد الرفيع الجواهري، الذين دفعوا ضريبة هذه الوسطية، إن نقديا أو إعلاميا، على الصعيد المغربي، فأحرى الصعيد العربي و لو أن اثنين منهم استطاعا، في حدود معرفتنا، اختراق حاجز النشر بالمشرق العربي و هما عبد السلام الزيتوني الذي طبعت مجموعته الشعرية الموسومة ب "نسيت دمي عندهم" (1994) بدار الكرمل الأردنية، و عبد الرفيع الجواهري

الذي صدر ديوانه الأول، "وشم في الكف" (1980) عن دار ابن رشد البيروتية، و عندما نتقرى إشارية تاريخ صدور ديوان عبد الرفيع الجواهري بالذات فلن نبطئ في تخمين أهمية مكسب كهذا يحققه شاعر مغربي في فترة كان فيها هاجس النشر في الميتروبول الثقافي العربي ضاغطا على المبدعين و كلّ مكونات الإنتلجنسيا المغربية.

(2)

مدموغا بذاكرته الغضة التي تشربت بماء مدينة فاس و استعاريتها المدوخة، الناهضة عفو التاريخ و المعيش و العمران و اللسان، و بذاكرته الأخرى المكتهلة، المنضودة بفتنة مراكش و مجازيتها الآسرة، ببلاغة الاحمرار و خفة الكينونة و ملاحة اللثغة، أي مورطا، عن الآخر، في المناداة القصية، المهموسة لحاضرتين باذختين، لكن ملسوعا أيضا بالبرود السريالي لمدينة الرباط و معروقا، في آن، باجتفافها الخيالي... مشروطا بمراسه الإعلامي المنتج، إن في السمعي أو في المكتوب،و بثقافته القانونية المستنيرة... مزودا بفطنة الذهن و نباهة العين المتغورة اللاقطة، بأناقة كيانية مقيسة بالميليمتر... متخما، إضافة إلى هذا و ذاك، بمقروءاته في جنس الشعر و في غيره من الألوان التعبيرية انضوى عبد الرفيع الجواهري، عن أهلية وجدارة، إلى محفل شعراء مجايلين له صنفوا، في الأدبيات النقدية و الإعلامية المغربية، ضمن ما اصطلح عليه بجيل الستينات، و تضافرت جهودهم، كلّ بحسب إمكاناته و قدراته، من أجل بناء الشعرية الستينية و إرساء منظومتها التصورية و الأدائية و الرؤياوية.

صحيح أن تجربته الشعرية تنتمي، على هذا النحو أو ذاك، إلى الأفق الرؤيوي، نقول الرؤيوي وليس الرؤياوي، الذي اقترحه محمد بنيس في كتابه، "الشعر المغربي المعاصر: مقاربة بنيوية تكوينية " و سعى إلى تشخيصه إجرائيا و توصيفيا، نقصد أفق الرؤية الانتظارية، المأساوية، بيد أن صاحبها تهيأ له أن يختط لها مسارا متفردا لا من حيث السجل اللفظي أو السنن الإيقاعي، الإبدالات أو الترصيفات الناسجة للجمل و العبارات و المقاطع، و القصائد في المحصلة، الأبنية الموضوعاتية أو الاحتفارات المجازية و المتواليات الترمزية... يشي، انطلاقا من المردود النصي و التخييلي لقصائده، بانشغال صميم بالسؤال الشعري، بهمّ الكتابة أو، بالأولى، بالرغبة في تملك نارها المقدسة و المتأبية.

فسيان اتصل الأمر بديوانه الباكر، "وشم في الكف" (بيروت 1980)، أو بديوانه الثاني، "شيء كالظل" (مراكش 1994)، فإن القراءة لتلفي ذاتها في رحاب جملة شعرية لها من الكفاية النصية و التخييلية ما يؤشر على مسلك كتابي صبور و تنقيحي محمود، بحيث، و في اللب من المقتضى الإيديولوجي و السياسي و الأخلاقي الذي وجه الكتابة الشعرية على مدى عقدي الستينات و السبعينات أمكنه أن

يضع المخيلة على جملة شعرية لا تجافي، بالمطلق، الوازع التعبيري عن ضمير مجتمعي عام موال لتطلعات و آمال تاريخية عريضة انجراحه بمرارة جملة من النكسات و الخيبات، الوطنية و القومية و الإنسانية، غير أنها لا تفرط، قيد أنملة، في استيفاء شعريتها الموصولة، إن نحن اعتمدنا مقولات النقد العربي الكلاسيكي، بدلالات الماء و الرونق و الطلاوة و السلاسة...، المتنافية مع دلالات المعاظلة و الاستخشان و الغرابة و الحوشية... إنها ليست شعرية رخوة أو ناعمة كما قد يتبادر إلى الذهن و إنما هي شعرية ينطبق عليها وصف السهل الممتنع، بلغة نقادنا القدامى دائما، أي يسر البناء الشعري بالنسبة للشاعر و استعصاؤه، في نفس الوقت، على غيره من الشعراء، طبعا داخل فضاء كتابي، محكوم باشتراطات القصيدة المعاصرة و إلزاماتها، قلة هم الشعراء الذين استطاعوا تأثيثه بجمل شعرية من هذا النمط تضمر ليونة قوامها النصي و التخييلي جوهرا بنائيا صفته المركبية.

و لأنها جملة شعرية أنيقة، أناقتها من أناقة ما تنتقيه من أشياء و توضّعات و وقائع و محكيات... تحولها من هيئة المعطى الخام إلى مادة مأهولة بجدة شعرية مغتنية، و كذلك من أناقة ما تفترشه من مفردات و يغلفها من إيقاعات و تجترحه من أخيلة و تماهيات... فإن لهذا لمّا سيمنحها قابلية فائقة للانتقال إلى كنف الموسيقى و الغناء، شأنها شأن بعض قصائد مجايليه، محمد الخمار الكنوني و أحمد صبري، و بتعبير مواز قابلية أكبر للذيوع و الانتشار، و حسبنا أن نشير هنا إلى القصيدتين - الأغنيتين، "القمر الأحمر" و "راحلة "، اللتين تشكلان عنوانين فارقين في المتن الغنائي المغربي، إذ خلفتا صدى جيدا لدى الذائقة الشعرية - الموسيقية الراقي ذوقها.

هذا و إذا ما كان الإلقاء الشعري واحدا من مآزق الممارسة الشعرية المغربية، ماضيا و راهنا، فالظاهر أن عبد الرفيع الجواهري أبان عن استعداد ملموس لمغالبة هذا المأزق و البرهنة على أنه بشيء من الجهد و العزم يمكن تدليل هذا العائق و تطويع اللسان الشعري المغربي لمتطلبات الإلقاء الاحترافي المقنع. فهو يتقن قراءة قصائده مستعينا، في هذا المضمار، بما استمده من تجربته الإذاعية و الترافعية في تربية نبرة إلقائية جاذبة، في تفصيل السلالم القرائية و التناور المقامي بالكلمات و الأسطر و المقاطع، مصالحا هكذا الكلام الشعري مع لسان منشده.

و إلى حين انتباه النقد و الإعلام إلى رصيده الشعري المائز و الخصيب، انتباها حقيقيا يناسب حجم هذا الرصيد و نوعيته، سيظل عبد الرفيع الجواهري شاعرا فاعلا، بطريقته الخاصة، في المجال الشعري المغربي، إنه شاعر معني، لا محالة، بصلادة التاريخ، بقبح اليومي، غير أن هذا لا يعفي على كونه معنيا،

بالموازاة من صلادة التاريخ و قبح اليومي، بتجميل جسد قصيدته، بتأنيق الأشياء و الكلمات، و تحويل اللحظة الشعرية إلى لحظة إمتاع ذهني و روحي دفعة واحدة.

(*) نص الورقة المعدة بمناسبة حفل تكريم الشاعر عبد الرفيع الجواهري الذي نظمه المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بالرباط يومي 16/17 مارس 2001.